مقدمة
بقلم: د. منصور فهمي

لم يكد مؤلف هذا الكتاب يجتاز امتحان الدكتوراه مصحوبًا بالتوفيق، حتى قام نفر من أصحاب الأغراض: يذيعون عنه المفتريات، ويتقولون عليه الأقاويل. وقد بدا للمؤلف أن يدفع الشر بالشرّ، ولكن أستاذه الفيلسوف الدكتور منصور فهمي كتب إليه خطابًا يوصيه فيه بالرفق، وينصح له بالتثبت، ويدعوه إلى مقابلة الشر بالصفح الجميل.

والمؤلف يثبت هنا هذا الأثر الخالد، ويشكر أستاذه على نصيحته القيمة، ويعاهد ربه وقومه على ألا يعمل غير ما يعتقد أنّه حق وصواب.

أخي العزيز:

طالما وجدنا في تاريخ الأفكار عامة حملات للنقد شديدة. وطالما رأينا علماء المسلمين وفلاسفتهم ينال بعضهم بعضًا بالنقد والتجريح. وطالما غلوا في النقد حتى انقلب إيذاء وإيلامًا.

ولكن هل أخفت شدة النقد يومًا فضل المنتقد عليه؟ وهل ضن الزمان على المنتقدين بما هم أهل له من الحرمة والمكانة؟ وكيف ذلك، والنقد ليس إلا أداة لإظهار الحقائق واضحة جلية؟

ولئن كان للمناقد فضل في إظهار خطأ المنتقد عليه، فلقد كان لهذا الفضل بسبقه إلى موارد العلم، وخوضه في مسائل كانت سببًا في يقظة هذا الباحث الأخير.

إلا أنه يجمل بنا حين ننظر في كتب المتقدمين، الذين يخالفوننا في أساليب البحث، ومناهج التفكير، أن نتمثل أنفسنا في أزمنتهم، وأمكنتهم، وأن نتمثل ما استخدموه للحصول على الحقائق من مختلف الأدوات، لكي نلتمس لهم العذر، إذ رأيناهم لم يصلوا إلى الأغوار البعيدة التي ينبع منها الماء صافيا نقيًا.

وما أبعد الفرق بين من يدخل الهيجاء بما سلحته به العصور الخوالي من سهام ونبال، وبين من يدخلها مدرعًا بما ابتدعته العصور الحديثة من معدات النزال! وما أكبر الفرق بين الضوء ينبعث من زيت المصباح، وبين النور يتفجر من ثريات الكهرباء! ولكننا مع ذلك أيها الأخ العزيز نعجب بأصحاب القسي والنبال، إذ لم تنقصهم الشجاعة، ولم يفتهم الثبات، ونحمد الأضواء الضئيلة التي تنبعث من زيوت المصابيح؛ لأنَّها على ضآلتها تصدع جوانب الظلام.

فإذا رأينا الغزالي غفل عن حقيقة تنبهنا نحن إليها، أو أغلق عليه موضوع فتحت لنا أبوابه، أو أدركه وهن في الرأي، أو تناقض في فهم فكرة، فجدير بنا أن نقدر ظروف زمانه ومكانه، وأن نذكر كيف كانت وسائله إلى الفهم والإدراك، قبل أن نصب عليه جام اللوم والتثريب.

إن أهل تلك الأعصر الخالية، كانوا يعتمدون كثيرًا على ذاكرتهم، وكانوا في الوقت نفسه يتناولون كثيرًا من الموضوعات؛ لأنَّ فكرة الإحصاء وتوزيع الأعمال، لم تكن مألوفة لديهم على نحو ما هي اليوم، وكانوا يرون الجد في طلب العلم طاعة لله. فمن ثم حفظوا كثيرًا، وكتبوا كثيرًا، ولكن ضاق وقتهم، ووهنت قوتهم، فلم يستطيعوا ترتيب ما كنزوا من العلوم الكثيرة، فخلطوا الغث بالسمين، وعرض لهم الضعف، والتناقض، والاضطراب.

وكذلك كان من أكبر الخدمات أن تناول الشباب المثقف كتب المتقدمين، فيدرسها، ويفهمها، ويحللها، ثم يبين ما فيها من الخطأ والصواب.

ومن أولى بذلك من طلبة الجامعة المصرية، التي أنشئت لوصل القديم بالجديد، وحث الخلف، على الانتفاع بميراث السلف، وإنقاذ الجيل الحاضر، من غلطات الجيل الغابر؟

لا يخطئ من يتناول كتب المتقدمين بالدرس، والتمحيص، والتهذيب، بل ذلك حق وواجب؛ لأن فيه حياة لما يجب أن يحيا من الأفكار، وموتا لما يجب أن يموت من الأوهام، ولأن في النقد الصحيح تهذيبًا للمشاعر، وتنويرًا للعقول.

وإنما يخطئ من يبالغ في حب المتقدمين، فينسى سيئاتهم، مع أن لهم سيئات؛ أو يبالغ في بغضهم، فينسى حسناتهم، مع أن لهم كثيرًا من الحسنات. والنقد الحق يرتكز على سرد المحاسن والعيوب، بلا جور ولا محاباة، وقد يذهب بصاحبه إلى التوفيق بين الآراء المختلفة، فيجعل من الزوايا المتعددة التي ننظر منها إلى الحقائق شكلًا واحدًا منسجم الترتيب ننظر من نواحيه إلى تلك الحقائق. فأعداء النقد ليسوا فقط أعداء لحرية الآراء، ولكنهم أعداء لمنازع التوفيق.

وأنت يا أخي درست مؤلفات الغزالي، وفهمتها، وحللتها، وبينت ما فيها من الخطأ والصواب، فماذا ينقم الناس منك، وقد ذكرته بالخير، حين رأيت أن يذكر بالخير، وذكرته بالملام، حين رأيت أن يذكر بالملام، وما كان الغزالي بأكبر من أن يخطئ، ولا كنت أنت بأصغر من أن تصيب.

لقد راعهم أن يقسو قلمك على مؤلف له عندهم حرمة وقداسة، وكان عليهم أن يذكروا أنك شاب، وأن قلم الشباب قاس شديد، بل ليتهم عملوا بما طالبوك به من الرفق والهدوء، فلم يوجهوا إليك قارس اللوم، ومر التأنيب.

كانت رسالتك مثارًا للجدل والمناقشة، ويعلم الله أنا لن نغضب لذلك. لأنا نريد أن تخدم الحقيقة، والحقيقة بنت البحث. وهل علمناك إلا أن تكون خادما للحقيقة ولو شق إليها الطريق؟ فما دمت ترى أنك على حق، وما دمت تعتقد أنك سائر على الصراط السوي، فلك أن تتمسك برأيك، وتدافع عن حقك، ولكن في رفق ونزاهة، فإن الحق لا يخدم بمثل الرفق والنزاهة. وكما يجب عليك أن تدافع عما تعتقد أنه حق فإن عليك أن تنفض يدك بسرعة البرق مما تعتقد أنه باطل، فإن الرجوع إلى الحق فضيلة، والتمادي على الباطل نقيصة، وليس بعد الحق إلا الضلال.

لقد علمتنا رسالتك، بجانب ما تناولته من الأبحاث العديدة، إننا قطعنا شوطا بعيدا في سبيل الآراء الحرة، المدعمة بالقوة والنهوض. وإن كنا نأسف على أنه لا تزال هناك صدور ضيقة، يؤذيها الهواء الطلق، وكان الخير في أن تستروح به، وتسكن إليه. ونأسف كذلك على أن عدد هؤلاء كثير، وعدد المفكرين قليل.

لقد زاد اغتباطي برسالتك أنها أول رسالة قيمة تناولت تاريخ الأفكار الإسلامية بالنقد والتحليل، وأرجو أن تكون خطوة تتبعها في هذا المدى خطوات. وإن كان يحزنني أن يتألب عليك رجال المعهد الذي أعدك لدخول الجامعة المصرية. ولكن الإنصاف يقضي علينا بأن نعترف بأن هذه سيئة لم ينفرد بها الأزهريون. فإنا نرى بكل أسف أن الأزهريين يرمون أصحاب الأفكار الحرة بالكفر والمروق، وأنصار الآراء الجديدة يرمون الأزهريين بالجهل والجمود. وهم جميعا من المسرفين.

وإذا كان لي أن أنصحك -ومن الواجب أن أنصحك- فإني أدعوك إلى حرب هذه الضلالة. وحذار أن تقاطع أحدا من أساتذتك وزملائك في الأزهر الشريف، فإنكم جميعًا طلاب علم، وأنصار حقٍّ، والتوفيق بينكم ليس بالأمر المحال.

لقد فات كثيرًا من عشاق الجديد أن يضموا إليهم أنصار القديم بالرفق والمجاملة وأنت بحمد الله ربيب الأزهر والمعاهد الدينية، فماذا يضرك لو وصلت أساتذتك وزملاءك، وجادلتهم بالتي هي أحسن، لتسيروا أصفياء في التوفيق بين القديم والجديد.

إنني أخشى عليك كثيرًا أيها الأخ، فقد رأيت كيف قامت القيامة حين اطلع الجمهور على جانب واحد من رسالتك، فماذا عسى أن يصنع هذا الجمهور حين يطلع على ما فيها من شتى الجوانب، ومختلف الأرجاء؟

ولكن إياك أن تجزع، وقد بدئت حياتك العلمية، بصدمة من تلك الصدمات الاجتماعية، فذلك دليل على أنك خادم من خدام الإصلاح، وهو خير لقب تلقى به الله.

ولك خالص الدعوات، والعطف، والسلام.

منصور فهمي

تعقيب للمؤلف

أكرر الشكر لسيدي الأستاذ الدكتور منصور، وأؤكد له أن بيني وبين علماء الأزهر الشريف عرًى لا تقدر على فصمها الليالي. ولن أنسى ما حييت أني مدين على الأقل لحضرات أساتذتي الأماجد الشيخ الدجوي، والشيخ اللبان، والشيخ الظواهري، والشيخ الزنكلوني، والشيخ حسين والي، والشيخ سيد المرصفي. فإذا قضت الظروف بأن تنقطع بيني وبين الأزهر جميع الصلات -لا قدر الله ولا سمح- فإني لن أنسى ولن يسنى أحد أني مدين لأساتذتي في الأزهر، وأن خروجي عليهم ضرب من العقوق، ونكران الجميل.

اللهم إن كنت تعلم أني صادق فيما أقول، فأجزني بخير ما يجزى به المؤمن الصادق، وإن كنت تعلم أني أظهر غير ما أضمر، فاغفر لي وتب علي فإنك وحدك التواب الغفور.

فاتحة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على جميع الأنبياء والمرسلين، وبعد؛ فهذا هو الكتاب الذي نلت به إجازة الدكتوراه من الجامعة المصرية، والذي سلقني العلماء من أجله بألسنة حداد.

هذا هو كتاب (الأخلاق عند الغزالي) أقدمه للجمهور: ليكون المرجع لمن يريد أن يتبين مبلغ المغرضين من الصدق، وحظ المرجفين من الصواب.

هذا هو الكتاب الذي رميت من أجله بالكفر والزندقة، والذي فجر لحسادي ينبوعًا من اللغو والثرثرة لا ينضب ولا يغيض. وما أنا والله بنادم على رأي رأيته، أو قول جهرت به، فلست ممن يخافون في الحق لومة لائم، أو يقيمون وزنا لكيد الحاسدين، ولغو اللاغين، من مرضى القلوب، وضعاف العقول، وصغار النفوس؛ وإنما يحزنني ما يلاقي أصدقائي من العنت في دفع ما يفتري الكاذبون، ويختلق المفسدون.

على أن الغزالي رحمه الله عانى من حاسديه مثل ما عانيت، ولاقى ضعف ما لاقيت، حتى لنجده يطمئن أحد إخوانه بقوله: «رأيتك أيها الأخ المشفق موغر الصدر، مقسم الفكر، لما قرع سمعك من طعن طائفة من الحسدة على بعض كتبنا المصنفة في أسرار معاملات الدين، وزعمهم أن فيها ما يخالف مذهب الأصحاب المتقدمين، والمشايخ المتكلمين، وإن العدول عن مذهب الأشعري ولو في قيد شبر كفر، ومباينته ولو في شيء نزر ضلال وخسر، فهون أيها الأخ المشفق على نفسك، لا

تضيق به صدرك وقل من غربك قليلا، {واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا}[١]، واستحقر من لا يحسد ولا يقذف، واستصغر من بالكفر والضلال لا يعرف، فأي داع أكمل وأعقل من سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم، وقد قالوا: إنه مجنون من المجانين، وأي كلام أجل وأصدق من كلام رب العالمين، وقد قالوا: إنه أساطير الأولين، وإياك أن تشتغل بخصامهم، وتطمع في إفحامهم، فتطمع في غير مطمع، وتصوت في غير مسمع، أما سمعت ما قيل:

كل العداوة قد ترجى إزالتها إلا عداوة من عاداك عن حسد

ولو كان فيه مطمع لأحد من الناس، لما تلي على أجلهم رتبة آيات اليأس. أو ما سمعت قوله تعالى: {وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغي نفقًا في الأرض أو سلمًا في السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين}[٢].

وقوله تعالى: {ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون * لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون}[٣].

وقوله تعالى: {ولو نزلنا عليك كتابًا في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين}[٤].

---

[١] سورة المزمل: آية ١٠.

[٢] سورة الأنعام: ٣٥، كبر: شق. النفق: سرب في الأرض.

[٣] سورة الحجر: ١٤، يعرجون. يصعدون. سكرت: حبست عن النظر.

[٤] سورة الأنعام: ٧.

وقوله تعالى: {ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون}[1].

وقد صار الغزالي بعد ذلك حجة الإسلام. ونحن لا نريد أن يفتن الناس بنا كما فتنوا به، فهل نرجو أن نظفر فقط بالسلامة من تقول المفترين، وتزيد المعتدين؟

«على الله توكلنا، ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين».

محمد زكي عبد السلام مبارك

[1] سورة الأنعام: ١١١، قبلا: عيانًا ومقابلة، وأخطأ النسفي حين ظنها جمع قبيل بمعنى كفيل.

obeikandl.com